﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي .. (٩٨) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : « سـأستـغفـر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبـار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاسـتغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البـر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البـر من ابـن لأبيـه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حـق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدَّ من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مـرّ عليهـا وعلى تأثيـرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعـقوب علـيه السـلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب .

وينقلنا الحق سـبحـانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقـاء بين يوسف عليـه السلام وأهله كلهم ، بعـد أن انتـقلوا إلى حيث يعـيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[1] إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) ﴾

ونعلم أن الجَـدَّ إسـحق لم يكُنْ موجـوداً ، وكـانوا يُغلِّبـون جهـة الأُبوة على جهة الأمـومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كـانت غير موجودة[2] .

(١) آوى : ضمَّه إليه وأسكنه عنده أو أنزله فى بيت . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفـاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذى آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. (٩٩) ﴾ [يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهى انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلِّم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقى به ويغلبُك شوقُك فتحتضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادىّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ في سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان في يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمرَّ بسواد بن غزية من بني عدى بن النجار[1] ، وهو مستنصل[2] عن الصف - أي خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ في بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدْنِي[3] .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتنقه سَواد وقبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدِي جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[4] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣/١٤٨) .

(٢) تنصلْت الشيء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوَد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثلها قيل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٦٢٦) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية ٣/٢٧١ » .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ[2] وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم ؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذى يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّداً لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخروا سُجَّداً ليوسف ، بل خَرُّوا سُجَّداً لمن يُخَرّ سجوداً إليه ، وهو الله .

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه ؟

---

(١) أبويه : المقصود بهما هنا أبوه يعقوب عليه السلام ، وخالته زوجة أبيه ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت فى نفاس بنيامين . [راجع تفسير القرطبى ٥ / ٣٥٩٩] .

(٢) قال الحسن البصرى : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم، يومئون برءوسهم إيماءً ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم ، قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) : « أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة » .

إنه هو سبحانه الذى قال ذلك ، وهو سبحانه الذى أمر الملائكة من قَبْل بالسجود لآدم[1] فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم ؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه للهَمّ بالسجود لآدم ، فآدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذى خلق هذا الخَلْق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذى جمع شملهم ، وهو سبحانه الذى قال هذا القول ، ولم يُجرِّم سبحانه هذا الفعل منهم[2] ، بدليل أنهم قَدَّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردَّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هى الأمور التى تُفعل من الأدنى تقرُّباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإنْ كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هى الأمور المُحرَّمة .

أما العبادة لله فهى اتباع أوامره وتجنُّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدِّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخْل للعبادة به[3] .

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة] .

(٢) نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٦٠٠] .

(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم » أورده القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) وعزاه لابن عبدالبر فى التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرَّر تحريراً منطقياً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف ؛ هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. ﴿١٠٠﴾ ﴾
[يوسف]

وقد كانت الرُّؤيا هى أول لَقْطة فى قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف]

وقوله فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أنْ سجدوا ليوسف سجودَ الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والأب والخالة التى تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بُدَّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رُؤْيا إبراهيم عليه السلام التى أمره

فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه ؛ فقام إلى تنفيذها ؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرُّؤْيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم ؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم ؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إنْ جاء إنسان وقال : لقد جاءتنى رؤيا تقول لى نَفِّذ كذا . نقول له : أنت غير مُلْزم بتنفيذ ما تراه فى منامك من رُؤَى ؛ فليس عليك حكم شرعى يلزمك بذلك ؛ فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه فى المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك ؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعى بتنفيذ الرُّؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذى حدث ليبين لنا عظَم الابتلاءات التى مرَّتْ على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقَّة .

وقال الحق سبحانه مُصوِّراً ذلك :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى(1) إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

(١) ابتلاه : اختبره ليعرف أمره وحاله. وبلوت الشيء : امتحنته واختبرته . قال تعالى : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [القاموس القويم ١/ ٨٤] .

وكانت قمة الابتلاءات هى أن يُنفِّذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزمون بتنفيذ رُؤاهم ، أما أى إنسان آخر إنْ جاءته رُؤْيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من نزغ الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداثَ الجِسَام التى مرَّتْ به فى تَسَلْسُلها ؛ مثل إلقاء إخوته له فى الجُبِّ ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكدِّر صَفْو اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرَّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبدًا ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لغُواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، ويكفى أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذْكر .

نقول : إن القصة مُنْسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ ؛ وبين قَصص يوضح المواقف الهامة فى التاريخ .

والمناسبة فى هذه الآية هى اجتماع الإخوة والأب والخالة ، ولا داعى لذكر ما يُنغِّص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال من قبل :

﴿ قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) ﴾ [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل :

﴿ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) ﴾ [يوسف]

وهو هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول :

﴿ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ويُثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهو إحسان له فى ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :

﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ إلى ، فتقول : « أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو هنا فى مجال « أحسن بى » .

أى : أن الإحسان بسببه قد تعلَّق بكل ما اتصل به ؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو[2] ؛ أما الإحسان إليه فيكون محصوراً فى ذاته لا يتعداه .

---

(١) ثرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكَّره به . والمثرِّب : المُعيِّر . قال ثعلب : معنى الآية : أى لا تُذكَر ذنوبكم . [لسان العرب ـ مادة : ثرب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٢) : «يُروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبرية . وقيل : كان يعقوب تحوَّل إلى بادية وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته ؛ وقسم للغير ، واعتبر مجيء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا تَوطُّن لهم في مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقرُّون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلأ ومساقط المياه ، ويحملون رِحَالهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة . ففي الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة في البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة في الحضر عنها في البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد[1] شوقي ـ رحمة الله عليه ـ صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فَأنا مِنَ البِيدِ[2] يا ابن جُرَيج ... ومِنْ هذه العيشَة الجَافِيه
ومن حَالبِ الشاةِ في موضعٍ ... ومن مُوقدِ النارِ في نَاحِيه
مُغَنِّيكُمو معبدٌ والغَريق ... وقَيْنتنا الضبع العَاوِيه
هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاةِ ... ونحن نأكل ما طَهَتِ المَاشِيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعَادة من حَلْبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل

(١) أحمد شوقي من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء في العصر الحديث ، وما زالت إمارة الشعر عنده .

(٢) البيد : جمع بيداء . وهي الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء ، سُمِّيت بذلك لأنها تبيد سالكها . والإبادة : الإهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بيد] .

الحضر صوت المُغنِّين المشهورين فى ذلك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِه الطُّهاة ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتْ هنْدُ يا ابنَ جرَيج ... وكانت على مَهْدها قَاسيه
فَمَا البِيد إلاّ دِيَارُ الكرَام ... ومنزلةُ الذِّمَم الوَاقِيه
لها قبْلةُ الشمس عند البُزُوغ ... وللحضَر القبلةُ الثَّانيه
ونحنُ الرَّياحين مِلْء الفضاء ... وهُنَّ الرَّياحينُ فى آنيه
ويَقْتُلنا العِشْقُ والحَاضِراتُ ... يَقُمْنَ من العِشق فى غَاميه

وقولها « اعتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى : أن هنداً ظلمت البيد يا ابن جريج ، ثم جاءت بميزات البدو ؛ فأوضحت أن بنات البادية كالرياحين المزروعة فى الفضاء الواسع ، عكس بنات الحَضَر التى تشبه الواحدة منهن الريحانة المزروعة فى أُصص الزرع ، أو أى آنية أخرى .

ثم تأتى إلى القيم ؛ فتفخر أن بنت البادية يقتلها العشْق ، ولا تنال ممَّنْ تعشق شيئاً ؛ فتنسلّ وتموت ، أما بنت الحضر ؛ فصحتها تأتى على الحب .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سبحانه من البادية ، ليعيشوا فى مصر ذات الحضارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قد ضخَّم

الفرق بين مـا كانوا يعيشون فـيه من شَظَف[1] العيش إلى حياة اللين والدَّعة[2] .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول :

﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[3] الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ..(١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبه يوسف للشيطان ؛ وصَوَّره على أنه « نَزْغ » .

أى : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أى : أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزة تُنبِّه إلى الشىء الضار فيندفع له الإنسان ، وهى مأخوذة من المهْـماز الذى يُروِّض به مدرب الخيل أىَّ حصان ، فـهو ينغزه بالمهْمـاز نزغة خفيفـة ، فيستمع وينفـذ ما أمره به ، فالنَّغْز تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْن .

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان ؛ فيقول لنا :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..(٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وكُلٌّ منَّا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسبـقة ، وحين تستعيذ بالله من الشيطان ، فأنت تكتسب حَصَانة من الشيطان .

وسبحانه القائل :

---

(١) الشظف : يُبْس العيش وشدته [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

(٢) الدعة : الراحة والترف فى العيش . [لسان العرب ـ مادة : ودع] بتصرف .

(٣) نزغه الشـيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بـين الرجلين : أفسد مـا بينهما . قـال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] . [القامـوس القويم ـ مادة : نزغ] بتصرف .

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾
[الأعراف]

أى : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْغ .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف :

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

فسبحانه هو المدبر الذى لا تَخْفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لُطْف » ضد كلمة « كثافة » فاللطيف هو الذى له جرْم دقيق ، والشىء كلما لَطُف عَنُفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

ولا شىء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شىء ، فهو يجمع بين اللُّطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه أىُّ شىء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شىء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلْمه سبحانه مُطْلق ، وهو حكيم يُجرى كل حَدَث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أىَّ شىء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ
ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا
وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ﴾

---

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١ / ٤١٠] .

(٢) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]خالقهما . وفى اللفظ معنى الشق فإنهما كانت رتقاً ففتقهما . وقوله : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى : خلقكم أول مرة فى الدنيا . [القاموس القويم ٢ / ٨٥] .

ونعلم أن الربوبية تعنى الخَلْق من عدم ، والإمداد من عدم ؛ والإقاتة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه العمليات فى تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حَظٌّ فى عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق ، فسبحانه هو الذى استدعى الخَلْق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان ؛ فلا أحد يملك قَهْراً عن الله ؛ وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾

[آل عمران]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة ممَّنْ يملك ؛ ولكن نَزْع المُلْك هو الذى يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذى يُعِز مَنْ يشاء ، وهو الذى يُذل مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية فى نفس المؤمن ؛ فهو يُوقن أنه لا مفرَّ من القدر ، وأن إيتاء المُلْك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير ؛ كى لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدِّل فى إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدر محذوفاً فى الآية .

وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين فى الآية وشَرَّيْن محذوفين.

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريده الله ؛ فكل ما يُجريه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا :

﴿آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

يقتضى أن نفهم معنى « المُلْك » ؛ ومعنى « الملْك » ، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شىء يملكه ؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمَّى : « الملْك » . أما « المُلْك » فهو أن تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخلقه ، ملَّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملَّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألة رَتَابة ذات .

ومثال هذا : هو ما حدث لشاه إيران ، وكان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفى طَوْعه جيش قوى ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقام غيره بتفكيك المسامير غير المرئية التى كان الشاه يُثبِّت بها عرشه ؛ فزال عنه المُلْك .

وأنت فى هذه الدنيا تملك السيطرة على جوارحك ؛ تقول لليد « إضربى فلان » فتضرب يدُك فلاناً ، إلى أن يأتى اليوم الآخر فلا يملك الإنسان السيطرة على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومها يكون لله وحده ، فسبحانه القائل :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

ففى اليوم الآخر تنتفى كل الولايات ، وتكون الولاية لله وحده . وبجانب « المُلْك » و « المِلْك » ؛ هناك الملكوت ، وهو ما لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام]

أى : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبعون أسرار ممالك النباتات والحيوانات ؛ فتتعجب من دِقَّة خَلْق الله .

ومَنْ وهبه الله دقَّة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام فى مناجاته لربه :

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصه بالقدرة على تأويل الأحاديث ؛ تلك التى أوَّل بها رُؤْيا الفتيَيْن اللذين كانا معه فى السجن ؛ وأوَّل رؤيا الملك ؛ هذا التأويل الذى قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً لله :

﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

وما دام سبحانه هو خالق كل شيء ؛ فليس غريباً أن يُعلِّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورجا[1] أو مِحْراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السَّوِيَّة التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخِّص بدقَّة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

---

(١) النورج : آلة لدراس الحبوب يجره الحيوان والمحراث آلة الحرث .

وهكذا نرى أن كل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شيء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه :

﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت فى بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان الأغيار .

أما السماوات والأرض فهى مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطى الدفء للأرض ، وهى مرفوعة عن الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فثابتة إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله :

﴿ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف فى الدنيا ، وقد نصره وقرَّبه وأعانه ؛ بدليل كل ما مَرَّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاّ يقتصر عطاء الله له فى الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً فى الباقية ، الآخرة .

وما دام سبحانه وليَّه فى الدنيا والآخرة ؛ فيوسف يدعوه :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوله : ﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِماً (١٠١) ﴾ [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له فى الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومَتَّع به ، ومشى فيه بما يُرضِى الله .

وعند تمنِّى يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمناها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفَّقاً فى الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوَّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1] أنه قَبل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم ؛ كان يطلب

---

(١) هو : أبو حفص الخليفة الصالح ، من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام ، ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة ، وولى إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ . ولم تطل مدته فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥ / ٥٠) .

الأكثر منه نُعومة ، وإذا جيءَ له بطعام ليِّن ؛ كان يطلب الأكثر لُيونة .

وحين صار خليفة ؛ كانوا يأتونه بالثوب ؛ فيطلب الأكثر خشونة ، وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً توَّاقة إلى الأفضل ؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه ؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة(١) .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له ؛ رضى الله عنهما ؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ فأحيَيْتَ سُنناً ، وأمَتَّ بِدعاً ؛ وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

مكونة من شقَّين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثاني : أن يموت مسلماً .

وكُلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : إن نفسى هذه تواقة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شىء أفضل منها تاقت إلى ما هو أفضل منها . قال سعيد بن عامر : الجنة أفضل من الخلافة . [حلية الأولياء ٥/٣٣١] .

مطلوب فى ذاته ؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثانى ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون[1] .

وإنْ قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حَتْماً ؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبى لربه :

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك صالح يأتى إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبى مرسل ؟

نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام[2] ؛ ولذلك يتجه الحق

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣ ، ٣٥٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٧٥) .

(٢) تُوفِّى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٠٥) أنه دفن في النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس عليه ، كل يحب أن يُدفن فى محلتهم ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى همُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيل ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه » .

سبحـانه من بعد تلك النهاية إلى المُرَاد من القصـة التى جاءتْ مكتملة فى سورة كـاملة ، غيـر بقية قَـصَص القرآن التى تتناثـر أىٌّ منها فى لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باسـتثناء قصـة نوح التى جاءت مكـتملة أيضـاً ، لدرجة أن بعض السطحـيين قالـوا « إن هذا تكرار للقصـة فى لقطات مخـتلفة » ودائماً أقـول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات ؛ إن اجـتمـعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتى اللقطات مـتفرقة ؛ لأن كل لَقْطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآنى قـد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خلال عـمره الرِّسالى الذى استـمر ثلاثة وعشرين عـاماً تعرَّض لأحداث جسَام . وكل لحظة كانت تحـتاج لتثبيت ، فيُنزِل الحق سبـحانه ما يُثـبِّت به فؤاد[1] رسوله ﷺ فـيوضح له فى مـوقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا[2] .

بل قد تجـد فى الواقعة الواحدة لقـطتيْن ، مثلما جـاء فى العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[3] .. (٨) ﴾ [القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

---

(١) يقول تعالى فى كتابه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠) ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤) ﴾ [فاطر] .

(٣) الحُزْن والحَزَن : الهَمّ والغَمّ . [القاموس القويم ١/ ١٥٢] .

ويقول فى نفس المسألة أيضاً :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداءٌ من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداء معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أمَد المعركة .

والمثل الثانى هو قول الحق سبحانه فى نفس قصة موسى ؛ وهى لقطة متقدمة حدثتْ فى الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه فى اليَمِّ ؛ فقد مهَّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص]

وهذا شَحْذٌ لِهمَّتها قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظةَ أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والذين قالوا : إن قَصص القرآن جاء مُبعثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت فى موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مَحْبوكة من أول الرؤيا إلى تولِّى المُلْك ، وجمع شَمْل العائلة .

ونزلت القصة فى سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ؛ وهم يعلمون

أن محمداً ﷺ لم يجلس إلى مُعلِّم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتى لهم مُوضِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذَّبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتى بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها .

ويقول الحق سبحانه فى نهاية القصة :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ (١) أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد ﷺ أى : أنك يا محمد لم تكُنْ معهم حين قالوا :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا .. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب - كما علمنا من قبل - هو ما غاب عنك ، ولم يَغِبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبىّ ؛ وهناك الغيب المُطْلق ، وهو الذى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضى الذى لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذى لم يأتِ بَعْدُ .

---

(١) اجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . واجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/١٢٧] .

والثانى : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدثُ فى مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً .

و ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ .. (١٠٢) ﴾ [يوسف]

أى نُعلمك به بطَرْف خَفىّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلْقوه فى غَيابة[1] الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلِّم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه ﷺ أُمىّ لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ[2] بِيَمِينِكَ إِذًا لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ؛ إقامة وترْحالاً والتقاءً بأىِّ أحد .

فلو علموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذى غابتْ عنهم فطْنتهم فيه ؛ وقالوا :

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه (القاموس القويم ٢/٦٤) والجب : هى البئر التى لم تُبْن بالحجارة .

(٢) الخط : السطر والكتابة . خط الكتابة يخطه خطاً : كتبه . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. (٤٨) ﴾ [العنكبوت] أى : قبل القرآن ما كنت قارئاً ولا كاتباً . [القاموس القويم ١/١٩٨] .

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. (١٠٣) ﴾ [النحل]

فَرَدَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قَصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّات القرآن » ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[2] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) ﴾ [القصص]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

---

(١) القلم : السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار أو فى القرعة ومن استعماله فى القرعة ، قوله : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران] فالأقلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم . [القاموس القويم ٢/ ١٢٢] .

(٢) هو : الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى . [ابن كثير ٣/ ٣٩١] .

باللدد[1] والجحود ـ وهم قد طلبوا مطلبهم هذا بتأسيس من اليهود ـ وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف فى مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفى سورة واحدة ، لا فى لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جاء لهم بها كاملة ؛ لأنهم لم يطلبوا جزئية منها ؛ وإنما سألوه عن القصة بتمامها ، وتوقعوا أن يعزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكان يجب أن يلتفتوا إلى أن الله هو الذى أرسله ، وهو الذى علَّمه ؛ وهو الذى أنبأه ، لكنهم لم يؤمنوا ، وعَزَّ ذلك على رسول الله ﷺ ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تيأس :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[2] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) ﴾ [الشعراء]

ويقول له سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فأنت يا رسول الله عليك البلاغ فقط ، ويذكر الحق ذلك ليُسلِّى رسوله ﷺ حين رأى لدد الكافرين ؛ بعد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

---

(١) لدَّ يلدُّ : اشتد فى الجدل والخصومة . والألدُّ : اسم تفضيل أى الأشد خصومة وجدلاً . قال تعالى : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (٢٠٤) ﴾ [البقرة] [القاموس القويم ١٩١/٢] .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ [1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ.. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت [القاموس القويم ٢/ ٣٩] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هى طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله فى الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له فى الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذى قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم فى الدنيا ، لم يَكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو فى حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت فى أى زمن يجعل الإنسان فى حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب فى حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت فى حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع فى الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما فى الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنسان المؤمن يقيس استمتاعه في الآخرة بقدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً معزولاً عن أمر الآخرة ، أي : أنه كافر بالآخرة وأخذها على أساس الدنيا فقط ، نقول له : انظر إلى ما يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجد أن نواهي المنهج إن منعتْك عن شر تفعله بغيرك ؛ فقد منعتْ الغير أن يفعل بك الشر ، في هذا مصلحة لك بالمقاييس المادية التي لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة في إطار قضية هي « دَرْء المفسدة مُقدَم على جَلْب المصلحة » .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجد آخر كاره لك ، ويحاول أن يقذفك في نفس اللحظة بحجر ، وأطلق الاثنان ما في أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جَلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقيس ذلك في كل أمر من الأمور ؛ لأن كثيراً من أدوات الحضارات أو ابتكارات المدنية أو المخترعات العلمية قد تعطينا بعضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لها ـ من بعد ذلك ـ الكثير من الضرر .

مثال هذا : هو اختراع مادة «د. د. ت» التي قتلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أىَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيَش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كى لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمستْها يَدُ بشر .

وهذا هو دَرْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ ..(١٠٣) ﴾ [يوسف]

نسبةٌ للذين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

---

(١) قفاه : يقفوه قفْواً : مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

نقـول : لا ؛ لأن « أكثـر » قـد يقـابله « أقل » ، وقـد يـقـابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ..(١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سـبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حـرص ما استطاع أن يجـعل أكثـر الناس مـؤمنين ، والحـرْص هو تعلُّق النفس وتعبئة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلبُ لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سـبحانه : أنت لن تهـدى مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَن يُضِلُّ .. (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يُوطِّن نفسه على أن الناس سيعقـدون مقارنات بين البدائل النفعية ؛ وسـيقعون فى أخطاء اخـتيـار غـير الـملائم لفـائدتهم على المـدى الطويل ؛ فـوطِّنْ نفـسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسـول الله قـد حـملتَ الـرسـالة وتسـألهم الإيمـان

لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فَطنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء(١) السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل(٢) :

﴿ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. (٩٠) ﴾ [الأنعام]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

---

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢) ﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس القويم ١/٣٣٨] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .
وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .
وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .
وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .
وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨٠] .
وقالها محمد ﷺ رسول الله : [سبأ : ٤٧] .